

تأثير الأدب العربي في الأدب الأوربي

للاستاذ عبد القادر على الجاعوني

المقدمة :

في هذا العصر الذي يحتاج فيه مدينة الغرب الأفطار العربية فتنقل إليها علومها وآدابها ، يحسن بنا أن نلقى نظرة إلى الوراء ، لنرى كيفية تمثيل الآداب العربية للدور نفسه في عصور مضت ، وكيف أن احتكاك العرب بالفرين كان له أثر ظاهر في آدابهم . ومن البديهي أن يكون التأثير ضئيلا في منطقة الآداب ، وأن يكون بارزا ملموسا في منطقة العلوم ، لأن الأمم تنصب آدابها . وتألف أن تدخل فيها عناصر أجنبية من تلقاء نفسها . ولهذا رأينا العرب تهافتوا على العلوم الفارسية واليونانية وغيرها ، أما آدابهم فظلت محافظة على صبغتها العربية وقلما تأثرت بآداب هاتين الأمتين .

ولقد مثل الغرب نفس الدور ، فقد تهافت على نقل العلوم التي اشتغل بها العرب إبان نهضتهم العلمية ، ووقف مكتوفا أمام الآداب العربية إما مستغربا أو مترفعا إزاء الآداب الشرقية التي برزت أمامه بأواب لم تألفها عينه من قبل ، وليس من المعقول أن يكون ذلك التأثير قد حصل دفعة واحدة بل إنه اتخذ سبيلا تدريجيا حل بين طياته كثيرا من العناصر الفنية ، وشيئا من الأفكار الشرقية ، وبدعا من الظلال الشعرية ، وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر .

تاريخ هذا التأثير في القرون الوسطى :

(من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر)

لما حلت اللغات الوطنية « Vernacular » محل اللغة اللاتينية ، وشاع استعمالها بدلا منها ، ظهر في فرنسا نوع جديد من الشعر يدل على وجهة اجتماعية جديدة ، وكان هذا الشعر شديد الشبه بنوع ظهر في الأندلس العربية ، ولهذا شاعت النظرية القائلة بأن شعراء جنوبي فرنسا — بروفانس — تأثروا بالأدب للأندلسي .

وهذا الشعر الجديد الذي ظهر في فرنسا ، قد صور الحب — كما صورته الغزل الغربي — بشكل جديد ، مثير للشعور ، غني بالصور الخيالية ، مغمم برقة الاستعطاف وشدة التيم الذي يقرب حد العبادة .

ومن المرجح أن هذه الطريقة في الغزل لم يكن منشؤها العادات الاجتماعية في ذلك العصر ؛ لأن المرأة كانت منحطة ، ولأن الفروسية تأتي أن تفرض على رجالها هذا النوع من التصنع الماطن لمنافاته للروح الحربية ومخالفته لمثل السكالك التي فرضها الكنيسة في تلك العصور .

وبقيت هذه النظرية قائمة حتى القرن التاسع عشر عند ما قام النقاد يطلبون وثائق خطية عليها وعندما أخفقوا في إيجادها تحولوا إلى الطرف الآخر وقالوا بنفيها .

أما الأبحاث الحديثة فقد بينت لنا أن الشعراء المغنين تروبادور « troubadours » في فرنسا قد أخذوا من الأندلس أساليب الغزل الجديدة .

قال الأستاذ « جب » « Gibb » في تراث الإسلام « The Legacy of Islam » في القرن الحادي عشر بلغ الشعر قمة ازدهاره بعد أن مررت عليه قرون طويلة يتابع فيها نموه ، والغزل لا يزال أكثر أنواعه شيوعا يفتتحون به كثيرا من قصائدهم . هذه كانت طريقة الجاهليين تبعها الشعراء في عصور التمدن الإسلامي . إذ ذاك كثر الشعر الفنائ وصقلته المدنية ، وزادته أناقة ورقة مصطنعة ، وأصبح الغزل في أقصى حالاته نوعا من التصوف . وفي وسط هذا التمسك ظهر الشعراء العذريون ونظريتهم الأفلاطونية التي وجدت في الأندلس موطئا خصبا ، وأثمر من دان بها ابن حزم صاحب « طوق الحمامة » الذي عدها من وسائل تزكية النفس .

هذه الروح الرومانطيقية المغالية هي التي انتقلت إلى منشدي القرون الوسطى وشعراء الغرب الفنائين وولدت فيها بمد الشعر الخيالي . أما كيفية انتقالها فيقول الباحثون إن ذلك جرى بواسطة الزجل أو الشعر المائي الذي استنبطه عرب الأندلس ، وأدخلوا فيه شيئا من روح الشعر الغربي وأسلوبه ، فنسج على منواله الأسبانيون ، وأصبح هذا الزجل الشبي حلقة الاتصال بين الشعر الغربي وشعر أوروبا الجنوبية . لقد عثروا مؤخرا على

الأسبانية . أما في باقي اللغات فقد نقل عن ترجمة لاتينية قام بها أحد اليهود ثم انتشرت في الأقطار الأوروبية .

وأخيراً وصلت بعد تغيير وتحوير إلى اللغة الفرنسية تحت اسم جديد أمثال « بيدبا » المنقولة رأساً عن الفارسية وكانت أحد المصادر التي استقى منها لافونتين الشهير أمثاله الموضوعة على السنة البهائم .

وعرف الأسبان فن القامات عند العرب فتنسجوا على منوالها في بعض رواياتهم ، وفي جلة ما وضعوه كتاب يدعى « الفارلس سيفار » يروى سلسلة منامرات مقتبسة من أصول عربية .

ولا تزال رقب الباحثين في إثبات ما لرسالة الففران من التأثير في الآداب الغربية ، إذ المظنون أنها كانت أحد العناصر التي أدخلها « دانتي » في تأليفه رواية « الكوميديا الإلهية » .

ثم كان عصر الانبعاث ، وهو عصر إحياء الآداب اليونانية القديمة والانصراف عما سواها ، ولم يلبث الناس أن سئموا الأنظمة البيانية وجنحوا إلى الخيال والألوان . ففي سنة ١٧٠٤ ترجمت روايات ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية وكان هذا نتيجة للأسفار ، وبدء الاستعمار في الشرق ونتيجة انجذاب الغربيين بسحر الشرق الذي ما زال يستهويهم بغرائبه وأسراره والوانه الزاهية قال مارتان في كتابه : « الشرق في الأدب الفرنسي » إن دراسة الشرق في أوروبا ابتدأت في القرن السابع عشر ، وتكونت ونمت في القرن الثامن عشر الذي يعد بحق عصر الأدب الشرق في أوروبا . هذا القرن الذي كثرت فيه البحوث العلمى الجاف ، وكثرت فيه الويلات والانقلابات فكان أهله متمسكين إلى الخيال ، ولذا كثرت فيه التأليف في موضوعات شرقية وامتلأت الروايات بأبطال شرقيين ، فوضع « راسين » مثلاً روايته بايزيد ثم ظهرت روايات « فولتير » التثيلية الشرقية والرسائل الفارسية لموتسكيو وفي انكلترا ظهرت « رؤيا مرزا » و « راسلاس » .

على أن هذه التأليف المقلدة كانت على جانب من الضعف والركاكة ، ولهذا جعلها تاريخ الأدب العربي لأنها شوهت قسماً

مجموعة أشعار أسبانية من نوع « القيلانسيكو » وهو الشعر العامى الذى لا يختلف عن الرجل العربى ، والمجموعة لابن قزمان الذى عاش في أوائل القرن الثانى عشر . وكل ما في شعره يدل على أصل عربى إلا اختلافاً قليلاً في طريقة الوزن الذى يعتمد على الحركات لا على المقاطع كالشعر الانكليزى .

وأخيراً كل القرائن تجتمع لتظهر أن هذا النزول الجديد بروحه وطريقته كان مصدره النزول العربى في الأندلس ، ولا يخفى أن النزول شاع في الشعر العربى من أقدم عصوره .

في حقلية وإيطاليا :

ولم ينحصر تأثير الشعر الأندلسى في فرنسا فحسب ، بل تعداها إلى إيطاليا وصقلية ، ولقى الشعر العربى مشجعاً من الملوك والأمراء الترمنديين فقد استعمل الشعراء الإيطاليون أوزانه لنظم أشعارهم إلا أن « بترارك Petrarch » لم يرق له هذا الأدب السخيل فتأثر عليه وعلى العرب في كتاباته .

ومن النواحي التي أثر فيها الأدب العربى : ناحية القصص والأمثال فقد ثبت مؤخراً لدى الباحثين أن كثيراً من القصص والأمثال في ألمانيا وفرنسا ترجع إلى أصول عربية ، وكما انتقلت الألفاظ على السنة السواح والتجار ، والمحاربون من الصليبيين كذلك تنقلت القصص والحكايات والأمثال إلى آدابهم ، ويرجح أن أبو كاشيو « Boccaccio » قد نقل حكاياته الشرقية من مصادر شفوية .

ومن البديهي أن الأدب العربى ملئ بالأمثال والقصص ذات المنزى الأخلاقى والأدبى الذى تسرب بعضه — فيما أعلم — من مصادر هندية أو فارسية أو يونانية ، ولقد صادفت هذه الأمثال قبولا مرضياً عند الغربيين فنقلها اليهود استحساناً إلى الآداب الغربية ، من ذلك كتاب السندباد المتحدر من أصل هندي ، ثم مجموعة حكم وأمثال ، وأقوال فلسفية ترجمت إلى الأسبانية واللاتينية أو غيرها . وهذان الكتابان كان لهما أثر خاص في النثر الأسبانى الذى اعتمد على النثر العربى في أول عهده . وكانت للترجمة الأولى لسكتاب (كليلية ودمنة) في أوروبا من الغربية إلى

وجاء بنتائج متماثلة إن لم تكن متعادلة . أولها في العصور الوسطى ، ثم بعد مرور عصر الانبعاث في القرن الثامن عشر ، ثم في القرن التاسع عشر ، وكان التأثير على أشده في القرون الوسطى عندما اقتبس الغرب عن الشرق بعض العناصر الفنية التي دخلت في تكوين أدبه . أما بعد سيادة الأدب اليوناني فلم يأت الاحتكار إلا بنتائج ضئيلة ، وكانت المنتجات الأوروبية الشرقية أشبه شيء بنوادير أو تحف غريبة تثير الفضول ولا تتمدى التقليد . هذا في القرن الثامن عشر ، أما في القرن التاسع عشر فقد ظهر في ألمانيا حركة متممة لم تدم طويلاً . وفي سائر أوروبا كان الناس في القرن الماضي ينظرون شزراً إلى كل ما هو أجنبي . وقد أسكرهم التبجح بالسيادة العالمية . أما في القرن الحالي فقد أخذوا يفكرون وجهة نظرهم ، ويشعرون أن دائرتهم مهما اتسعت فهي أضيق من أن تشغل العالم بأسره ، وتأكدوا بأن هناك خارج منطقهم كنوزاً يجب أن تكتشف .

(القدس)
عبد الفارر على الجواعوني
بكالوريوس في العلوم

ظهر هذا الأسبوع كتاب :

حكايات من الصين

كتبها بالإنجليزية كاتب صيني

ومرربها

عبد حمزة الزيات المحامي

تطلب من المكتبات ، ومن مكتب العرب بشارع

إبراهيم باشا رقم ١٠ بالقاهرة

ثمان النسخة عشرة قروش تضاف إليها أجرة البريد

من صفحاته . وكان لحركة الاستشراق التي بدأت في فرنسا صدى في أوروبا ، وكانت ألمانيا أسبق الجميع إلى اقتباس بعض مظاهر الأدب الشرقي . وقام كثيرون من شعراء ألمانيا « الرومانطيين » يستوحون الخيال الهندي والفارسي وكان قائد الحركة هردر « Herder » وبعد « lehtegel » ، « Hammer » وكان « جوته » أول من اعتمد الأسلوب الخيالي الشرق لأشهر أرادوا أن يتعزوا بالخيال عن الحقائق المؤلمة . على أن تأليفهم الأدبية لم تكن ذات قيمة تذكر لأن التقليد غلب عليها ، إلا أنها أدت للأدب خدمة جلياً إذ فتحت للأدباء باباً جديداً ما يزال يلجحه الكثيرون .

أما في فرنسا ، فقد كتب « فكتور هوجو » قصائده المعروفة « بالشرقيات » « Les Orientales » وصدرها بهذه الجملة « في عهد لويس الرابع عشر كان جميع الناس « هليينيين » أي طلاب الثقافة اليونانية ؛ أما اليوم فجميعهم مستشرقون أي طلاب للثقافة الشرقية » ، ولكنه مع شغفه بالثقافة الشرقية لم تبلغ معرفته بها الحد الذي وصل إليه الكتاب الألمان أمثال غوتي وسواه .

وفي إنجلترا نرى نفس هذه الحركة التي تهتم بالسطحيات ، ولا تنغلغل إلى جوهر الأشياء ؛ فهناك قام سكوت بسمى لإبراز رواياته الشرقية بملحة شرقية . واقتدى به غيره من الروائيين كما فعل بيرون قبل ذلك ، ونجح في تحبيب الشرق إلى الغربيين ، وتبعه في ذلك مور في روايته « Galla Rookh »

ففي هذه الأحوال جميعها أخطأ أدباء الأدب الغربي فهم الأدب الشرقي ، واستعملوه للتزيين والتلوين أي أخذوا منه القشور وأنكروا الحقائق المتطوية تحتها ، وأعرضوا عن الميراث المعنوي الذي قدمه الشرق للعالم . ومع هذا فاقرون التاسع عشر لم يعدم كاتباً يبين لنا الصلة الجوهرية بين الشرق والغرب في شخص فترجلر « fitzgerald » فنقل « رباعيات عمر الخيام » إلى الانكليزية ، وقد أبدع في نقلها حتى قيل إنها إنكليزية بقدر ما هي فارسية .

المقدمة :

هناك ثلاثة أدوار ظهر فيها تأثير الأدب الإسلامي في الغرب